## ونطرد باسمه إبليسا

يمدح محمد بن زريق الطرسوسي:

[الكامل]

هٰذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيسَا
ثُمَّ ٱنْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسا(١)
وَجَعَلْتِ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي فِي الكَرَى
وَتَرَكْتِنِي لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيسَا(٢)
قَطَعْتِ ذَيَّاكِ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ
وَأَدَرْتِ مِنْ خَمْرِ الْفِرَاقِ كُؤُوسَا(٣)
إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِعِي
تَكْفِي مَزَادَكُمُ وَتُرْوِي الْعِيسَا(٤)

= المنادمة على الشراب لشرب كأساً رويّة من يد صديق حميم، إنه أبو ضبيس، وهو نعم النديم المؤنس.

(١) ورد البيت في: شرح المفصل، لابن يعيش الحلبي ٢: ١٦، المقرّب، لابن عصفور: ٣٧، مغني اللبيب وشرح شواهده للسيوطي: ٦٤١، شرح شواهد الألفية، للعيني ٤: ٢٣٣، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٣: ١٣٧. حاشية يس على التصريح ١: ٣٢٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. برزت: ظهرت. الرسيس: ما استقرّ في قلب الشاعر من الحبّ. النسيس: آخر ما يتردّد في المرء من الرمق. ويبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني غزلي. يُخاطب حبيبته التي لا يعرف اسمها بهذه، وقد أطلّت بطلعتها، فإذا بقلبه ينبض نبضات عاشق، وممّا زاد في لوعته أنها سارعت بالرحيل مودّعة ولم تعمل على شفاء قلبه بوصالها تاركة أنفاسه تتردّد وهو في الرمق الأخير.

(٢) الكرى: النوم. الفرقدين: هما نجمان لا يفترقان. إن الشاعر لا يعرف للنوم طعماً، فإذا بمعشوقته تجعل حظّه السهر والأرق حيث يشارك الفرقدين نجويهما، فيكون بينه وبينهما حوار هامس حيث ينعى الشاعر حظّه ممن يحبّ.

(٣) الخُمار: بقية السكر. يُخاطب الشاعر حبيبته ذاكراً ما كان عليه شأنه في حال قربهما كأنه في شبه خمار لبخلها بالوصال، فإذا بها ترحل عنه بعيداً فتتوالى عليه المصائب تصبّها صَبًّا فتفقده صوابه.

(٤) الظاعنة: الراحلة. المدامع: مجاري الدموع من العينين. المزاد، الواحدة مزادة: =

حَاشَى لِمِثْلِكِ أَنْ تَكُونَ بِخَيِلَةً
وَلِمِثْلِ وَجْهِكِ أَنْ يَكُونَ عَبُوسَا[١]
وَلِمِثْلِ وَصْلِكِ أَنْ يَكُونَ مُمَنَّعاً
وَلِمِثْلِ نَيْلِكِ أَنْ يَكُونَ خَسِيسَا[٢]
خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَاذِلِي
حَرْباً وَغَادَرَتِ الْفُؤَادَ وَطِيسَا[٣]
بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلُّمَ دَلُّهَا
تِيهاً وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ تَمِيسَا[٤]
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا
هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا[٥]

---

= القرب. العيس: النياق. يصوّر الشاعر لحبيبته في حال ارتحالها كيف أن دموعه تنهمر بغزارة بحيث تملأ ما لديهم من قرب الماء، فتروي إبلهم بحيث يكتفون فلا يحتاجون إلى طلب الحصول على شيء منها.

(١) و (٢) النيل: ما يمكن أن يُعطى. الخسيس: القليل. يُخاطب الشاعر حبيبته منزّهاً إيَّاها أن تمانع بالوصل، فالبخل ليس من طبيعتها والعبوس ليس من عادتها، فوجهها جميل وزكاة الوجه الجميل ابتسامة حلوة عذبة. وهو يتمنى ألّا تبخل بلقاء. وهذا ما يجعله ملحاحاً لقناعته بأنها لن تنزل عند رغبته.

(٣) الخود، بفتح الخاء: الشابة الجميلة الناعمة. جنت: جرّت. الوطيس: التنور من حديد. لقد تسببت تلك الشابة الحسناء بحرب بين الشاعر ولائميه في هواها من العذّل علّه يتخلّى عن هذا الحبّ الذي ترك فؤاده بهجرها آتوناً يغلي.

(٤) تميس: تميل وتتثنّى بمشيتها. يصف الشاعر حبيبته؛ إنها بيضاء ممَّا يدلّ على أنها حرّة طاهرة العرض، وهي رغم دلالها ورقّتها فإنها لا تتكلّم، وتمشي باتزان لا تصنع ولا تكبّر اعتزازاً بجمالها فلا تميس بمشيها وتتثنى كالمغناج من النسوة.

(٥) الداء: المرض. جالينوس: أشهر أطباء اليونان. لقد تأكّد للشاعر أن دواءه الشافي في لقاء حبيبته ليُعبّر عن مدى حبّه لها، ولم يُؤمن بأن وصفات جالينوس الطبّيّة مفيدة في حالة كهذه.

أَبْـقَـى زُرَيْـقٌ لِـلـثُّـغُـورِ مُـحَـمَّـداً
أَبْـقَـى نَـفِـيـسٌ لِـلـنَّـفِـيـسِ نَـفِـيـسَـا[١]
إِنْ حَـلَّ فَـارَقَـتِ الْـخَـزائِـنُ مَـالَـهُ
أَوْ سَـارَ فَـارَقَـتِ الْـجُـسُـومُ الـرُّوسَـا[٢]
مَـلِـكٌ إِذَا عَـادَيْـتَ نَـفْـسَـكَ عَـادِهِ
وَرَضِـيـتَ أَوْحَـشَ مَـا كَـرِهْـتَ أَنِـيـسَـا[٣]
الـخَـائِـضَ الْـغَـمَـرَاتِ غَـيْـرَ مُـدَافَـعٍ
وَالـشَّـمَّـرِيَّ الـمِـطْـعَـنَ الـدِّعِّـيـسَـا[٤]
كَـشَّـفْـتُ جَـمْـهَـرَةَ الْـعِـبَـادِ فَـلَـمْ أَجِـدْ
إِلَّا مَـسُـوداً جَـنْـبَـهُ مَـرْؤُوسَـا[٥]

---

(١) زُريق: والد محمد الممدوح. الثغور، الواحد ثغر: هي مواطن متاخمة لبلاد الأعداء، يتخذها المقاتلة معسكرات للدفاع عن بلاد الإسلام. انتقل الشاعر من موضوع غزلي إلى موضوع مدحيّ دون مقدّمات. لقد جهّز زُريق والد الممدوح محمد من يأمنه على تخوم بلاد الإسلام لكفاءته وشجاعته وحسن بلائه في محاربة الأعداء. ولقد انتقلت تلك المهمة الخطرة من أمير عظيم إلى وريثه فورث كلّ مواصفاته، فهو بدوره نفيس كأبيه.

(٢) يصف الشاعر ممدوحه بجوده في حال بقائه في دياره؛ فكرمه يعمّ جميع مواطنيه حتى لا يُبقي في خزائنه مالاً، وهو ماجد شجاع، فإذا خرج من دياره لملاقاة الأعداء كان سيفه وسيلة حصد الرؤوس عن الأجساد.

(٣) الأنيس: الصاحب. يُشيد الشاعر بممدوحه؛ إنه ملك قادر في مواجهة أعداء؛ فإذا أراد المرء أن يتخلى عن روحه ويتمنّى الموت فعليه أن يستعديه، ليكون أنيس قبر ولحد.

(٤) الغمرات: الحروب. الشمري: المجرّب في الملمات العظام. المطعن: المجيد والمكثر الطعن في القتال. الدّعيس: المبالغ في الطعن. الممدوح مثال في الشجاعة، إنه يخوض غمار بحار الموت في معارك عنيفة لا يُشقّ له غبار، سلاحه رمح يشقّ الصدور بعنف ويُحسن استعماله بمهارة ورشاقة عجيبة.

(٥) كشفت: اختبرت. الجمهرة: الجمهور. المسود: المستعبد. يجعل الشاعر ممدوحه فوق سائر البشر، فالبشر كثيرون، وهم بين سيّد ومسود، وبخبرته تبيّن له أن ممدوحه علا شأنه حتى بات سيد الناس بلا منازع، إليه يؤول أمرهم.

بَشَرٌ تَصَوَّرَ غَايَةً فِي آيَةٍ
تَنْفِي الظُّنُونَ وتُفْسِدُ التَّقْيِيسَا[١]
وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَّةِ لَا بِهَا
وَعَلَيْهِ مِنْهَا لَا عَلَيْهَا يُوسَى[٢]
لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ
لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسَا[٣]
أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ
فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لأَعْيَا عِيسَى[٤]
أَوْ كَانَ لُجُّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ
مَا أَنْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. غاية كلّ شيء: منتهاه. الآية: العلامة. التقييس: من القياس. يُتابع الشاعر فكرته، فممدوحه من البشر شكلاً، ويختلف عنهم بمادّة إنسانيته وطبيعته، إنه آية إلهية ونموذج من الظلم أن يُقاس بغيره من بني جنسه لما يميّزه عنهم من ملكات عقلية وفكرية وبطوليّة وأخلاقية؛ فذلك ينمّ عن قياس فاسد لدى أصحابه.

(٢) يُضنّ: يُبخل. البرية: البشر. يوسى: يحزن. إن ممدوح الشاعر نادر الوجود، لذا لا يُضنّ به على سائر الخلق لما ميّزه اللّه عزّ وجلّ به من مزايا وصفات، وليس لسائر الناس فضل عليه بشيء، لذا فلو خسروه لم يُفلحوا في حياتهم، فجميعهم لا يُعادلونه لعظم قدره لأنه أفضلهم، وبقاؤه ضرورة لحياتهم، فلو هلك لضاعوا جميعاً لأنه رأسهم، والجسد بلا رأس لا قيمة له.

(٣) و (٤) ومن مغالاة المتنبي المذمومة أن الممدوح ذو رأي سديد، فلو أن ذا القرنين استشار ممدوحه لأوضح ما عليه فعله ولأرشده إلى الصواب فوصل إلى درب ووصل إلى النور ولما وصل إلى درب الظلمات، ومن تلك المغالطات لو أن سيف الممدوح أطاح برأس عازر لما أمكن عيسى عليه السلام إحياءه؛ وذلك تمّ بفضل تأييد اللّه تعالى له لتكون من معجزاته عليه السلام.

(٥) ومن معجزات الممدوح أنه قادر على تغيير مسارات الإرادة الإلهية، فلو أن أعماق البحر حيث مرّ موسى عليه السلام مع قومه بقوّة يمين ممدوحه لتماسكت أعماق اليمّ =

أَوْ كَـانَ لِـلـنِّـيـرَانِ ضَـوْءُ جَـبِـيـنِـهِ
عُـبِـدَتْ فَـصَـارَ الْـعَـالَـمُـونَ مَـجُـوسَـا[١]
لَـمَّـا سَـمِـعْـتُ بِـهِ سَـمِـعْـتُ بِـوَاحِـدٍ
وَرَأَيْـتُـهُ فَـرَأَيْـتُ مِـنْـهُ خَـمِـيـسَـا[٢]
وَلَـحَـظْـتُ أُنْـمُـلَـهُ فَـسِـلْـنَ مَـوَاهِـبـاً
وَلَـمَـسْـتُ مُـنْـصُـلَـهُ فَـسَـالَ نُـفُـوسَـا[٣]
يَـا مَـنْ نَـلُـوذُ مِـنَ الـزَّمَـانِ بِـظِـلِّـهِ
أَبَـداً وَنَـطْـرُدُ بِـاسْـمِـهِ إِبْـلِـيـسَـا[٤]
صَـدَقَ ٱلْـمُـخَـبِّـرُ عَـنْـكَ دُونَـكَ وَصْـفُـهُ
مَـنْ بِـالْـعِـرَاقِ يَـرَاكَ فِـي طَـرَسُـوسَـا[٥]

= وامتنعت عن السماح لموسى وقومه بالمرور وإغراق فرعون وجنوده؛ تلك إرادة اللَّه عزّ وجلّ ولم يكن لموسى ولا للبحر يد في حدوث ذلك الأمر.

(١) ومن تلك المغالطات لو أن نيران المجوس استمدت من الممدوح ضياءها، لخضع البشر للنيران يعبدونها من دون اللَّه عزّ وجلّ.

(٢) الخميس: الجيش العظيم المؤلف من خمس فرق. ومن المبالغات أن الممدوح فرد واحد ولكنه بمثابة جيش عظيم عرمرم، ومن هنا تبدو شجاعته فيقوم بما يقوم ذلك الجيش من بطولات وانتصارات.

(٣) الأنمل: الإصبع. منصل السيف: قبضته. لقد وجد الشاعر في ممدوحه كرماً لا حدود له يُنفق كيف شاء وهو في نفس الوقت شجاع بطل مغوار، فإذا به يبطش بالأعداء ويسفك دماءهم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. نلوذ: نلجأ ونحتمي. إن ركن الممدوح مكين؛ يُخاطب الشاعر الممدوح بأنه ملاذ آمن من عثرات الدهر، فظله نعمة الأمن والسلام، وباسمه محمد يُطرد إبليس لعنه اللَّه تعالى، لأنه سميّ الرسول ﷺ.

(٥) يتناقل الناس الحديث عن مآثر الممدوح، وهم صادقون بمدحه. ورغم إعجابهم به فإن وصفهم ومديحهم دون ما يستحق من ذلك، فمن سمع من أهل العراق عن فضائله كأنه في طرسوس يرى ويسمع عن كثب مثالاً تصدق الروايات عنه في ما يُذكر.

بَـلَـدٌ أَقَـمْـتَ بِـهِ وَذِكْـرُكَ سَـائِـرٌ
يَـشْـنَـا الـمَـقِـيـلَ وَيَـكْـرَهُ الـتَّـعْـرِيـسَـا[١]
فـإِذَا طَـلَـبْـتَ فَـرِيـسَـةً فَـارَقْـتَـهُ
وَإِذَا خَـدِرْتَ تَـخِـذْتَـهُ عِـرِّيـسَـا[٢]
إِنِّـي نَـثَـرْتُ عَـلَـيْـكَ دُرًّا فَـانْـتَـقِـدْ
كَـثُـرَ الـمُـدَلِّـسُ فَـاحْـذَرِ الـتَّـدْلِـيـسَـا[٣]
حَـجَّـبْـتُـهَـا عَـنْ أَهْـلِ إِنْـطَـاكِـيَّـةٍ
وَجَـلَـوْتُـهَـا لَـكَ فَـاجْـتَـلَـيْـتَ عَـرُوسَـا[٤]
خَـيْـرُ الـطُّـيُـورِ عَـلَـى الْـقُـصُـورِ وَشَـرُّهَـا
يَـأْوِي الْـخَـرَابَ وَيَـسْـكُـنُ الـنَّـاوُوسَـا[٥]

---

(١) يشنأ: يكره، يبغض. المقيل: نوم الراحة في الظهيرة. التعريس: النزول في أماكن الراحة آخر الليل. يصف الشاعر انتقال صيت ممدوحه بين الناس في بلاده؛ فلا يقرّ له قرار شأن البشر، لا في الليل ولا في النهار، لانشغال البشر بسيرته في كلّ وقت.

(٢) خدر الأسد: أقام في عرينه مستتراً. العريس: عرين الأسد. يُخاطب الشاعر ممدوحه، أنه أسد يحمي عرينه، ويُقيم فيه، فلا يُغادره إلّا لقتال أعدائه، وهو دائم المكوث لحماية عرينه كأسد يعمل على حماية أشباله وأسرته من كل شرّ.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. انتقد: ميّز بين الرّديء والجيّد من الشعر. المدلّس: من يُخفي عيب سلعته لتروج بين الناس في السوق. يفخر الشاعر بشعره، إنه الدرّ، ويُخاطب ممدوحه طالباً منه أن يتبيّن شعره الجيّد؛ ففي السوق من بضاعته ما هو سيّئ كاسد يعمل المدلسون على رواجه بإخفاء معايبه، وليكن على حذر من الخداع، وليس كلّ من قال شعراً يُعتبر شاعراً.

(٤) حجبتها: حزتها. جلا: كشف وهيّأ. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه اختصّه بقصيدته دون سائر الناس في إنطاكية ليقدمها له كعروس جُليت وزُيّنت بأجمل زينة لينعم بها دون غيره.

(٥) الناووس: القبر. يُعبّر الشاعر عن رأيه بدور الشعر الجيد، فأفضل الأنواع ما أُنشد في قصور الملوك والأمراء والنبلاء والكاسد منه ما مدح به العامة من الناس. إنها نظرة شاعر متكسب لدور الشعر في حياة الأمة.

لَـوْ جَـادَتِ الـدُّنْـيَـا فَـدَتْـكَ بِـأَهْـلِـهَـا
أَوْ جَـاهَـدَتْ كُـتِـبَـتْ عَـلَـيْـكَ حَـبـيـسَـا[١]

## ألا أذّن

**قال وقد أذن المؤذن فوضع سيف الدولة الكأس من يده:**

[الوافر]

أَلَا أَذِّنْ فَـمَـا أَذْكَـرْتَ نَـاسِـي
وَلَا لَـيَّـنْـتَ قَـلْـبـاً وَهْـوَ قَـاسِ[٢]
وَلَا شُـغِـلَ الأَمِـيـرُ عَـنِ الـمَـعَـالِـي
وَلَا عَـنْ حَـقِّ خَـالِـقِـهِ بِـكَـاسِ[٣]

## يقلُّ له القيام

**دسّ إليه الأسود من قال له قد طال قيامك في مجلس كافور، يريد أن يعلم ما في نفسه له فقال ارتجالاً:**

[الوافر]

يَـقِـلُّ لَـهُ الْـقِـيَـامُ عَـلَـى الـرُّؤُوسِ
وَبَـذْلُ الـمُـكْـرَمَـاتِ مِـنَ الـنُّـفُـوسِ[٤]

---

(١) الحبيس: الموقوف لغير المسلمين. وتأييداً لموقف الممدوح الذي كان يقوم بالدفاع عن تخوم المسلمين في الثغور؛ فلو كان الخلود لأبقت الدنيا على ممدوحه وفدته بسائر الناس لأهميته للمسلمين، وحتى لو جاهدت وحصلت على الغنائم لقصرتها عليه دون سواه لأحقيته بذلك.

(٢) ورد البيت في: شرح شواهد شروح الألفية، للعيني ٤: ٤٥٨. يُخاطب الشاعر المؤذن الذي رفع صوته بالنداء، بأنه لم يذكّر ناسياً، فهو يُحافظ على الصلاة في أوقاتها، وليس بحاجة إلى من يُذكره بذلك، لأنه مؤمن، يخشع قلبه لذكر اللّه تعالى، لشدّة شعوره بالوقوف بين يدي خالقه.

(٣) يردّ الشاعر على المؤذّن بأن ممدوحه لا تشغله سفاسف الأمور؛ إنه مجرّد كأس ملئت خمرة، لا يشغله عن واجبه نحو خالقه كما أنه لا يُنسيه ما خلق لأجله السعي لبلوغ أعلى مراتب المجد، وهو ليس كغيره ممن يُضيعون أوقاتهم بلا فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العظيم.

(٤) ما يُقدمه الشاعر لممدوحه، مهما يكن عظيماً، فهو نزر قليل بحقّه، فهو جدير بتقديم =